

لِمَاذا نقرأُ وَكَيْفَ نقْرأُ؟

(الحَلْقَة الثّانِية)

أ.د. محمود توفيق محمد سَعد - عضو هيئة كبار العلماء

في مقالٍ سَـبقَ بيّنـتُ مَفهومَ القراءةِ والعلاقةَ بيْـن حِليةِ «الآدَميّة» و«القِـراءةِ» وبيْن «القِراءَة و«التَّأويل» وهُنا أطرَح السّـؤالَين الْمَنْهجيْين الْكُلّيّيْن اللَّذيْن لا يَليقُ بامْرئ ألا يَسألَهُما نفسَه: لِمَاذَا نَقرأُ؟ وَكَيْفَ نَقرأُ؟

السُّؤالُ الأوَّلُ: «لِـمَـاذا نقرأ؟»

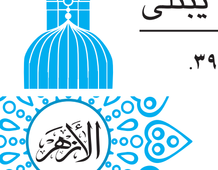
طُرِحَ هذا السّؤالُ مِنْ قبلُ، وَأجابَ عَنْه جَمعٌ مِنْ أَهلِ النَّظرِ، وَلَمْ أَشأْ أَنْ أسْتحصِدَ لَك هُنا بعَضًا ممَّـا قِيل فإنّما هُوَ مَبذولٌ بيْن يَديْـكَ وِإنْ كان أقربُها إليَّ ما قالَه عَبَّاس العَقَّاد(١) وَلَكِنّي أَدْخلُ هُنا فِـي الجَـوابِ عَنْهُ مِنْ غَيـرِ المَدخلِ الّذِي مِنْهُ دَخلـوا، أَدخُل مِنْ مَدخلٍ إيمانيّ وُصُـولًا إِلَى تَحقيقِ الرِّسالةِ الاسْتخلافِيّةِ الّتِي خُلقنا من أجلها.

وَالسُّؤالُ (لِماذَا نَقرأُ؟) فَرِيضةٌ عِلمية أنْ يَسبِقَ السّؤالَ (كَيْفَ نَقرَأُ؟) ذَلِك أنّه إِعرابٌ عَن الباعِثِ عَلَـى الفِعلِ، وَالباعِثُ عَلَـى الفِعلِ هُو الَّذي يَحمِلُ علَى اختيارِ المَنهَجِ، فَمْـن لَم يَكُنْ علَى وَعيٍ بِما يَبعثُه علَى الفِعلِ، لَنْ يَكُونَ وَاعيًا بِالكيفيّةِ الّتِي يُحقّقُ بِها ذلِك الفعلَ.

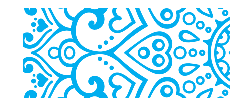
وَقَد يُقال: لِمَ لمْ تُضِفْ سُؤالًا ثالِثًا: (مَاذَا نَقرَأُ؟) لِتكونَ الأسئِلةُ ثلاثةً: سؤالٌ عَن الباعِثِ، وسؤالٌ عَن الكَيفيّةِ، وَسؤالٌ عَن المَقروءِ؟

قَد يكونُ هذَا مَشروعًا، لَكِنّك إذا نَظرتَ رأيتَ أنّه لَيْس الأهَمُّ نَوعَ ما تَقرأُ، بَل الأهمُّ ما يَبعثُك علَى القراءةِ وَكيفيّتُها، فَكُلُّ ما يَصلُحُ لِلقراءةِ هُو ممَّا يَنبغِي أن يُقرأَ، فلَيس هنالِك مَا لا يَستحِق أن يقرأ مِنْ فنونِ العلمِ، فالقارئُ الحَقُّ هُو الَّذي يُفيدُ مِن كلّ مَقروء سـواءٌ كان المقروءُ إيجابيًّا أوْ سـلبيًّا، أيْ مِمّا يُسـتحمَد بِه فاعلُهُ أوْ ممّا يُسـتطرح، فالكِتابُ غيرُ الحميدِ مادّةً أَوْ مِنهاجَ إفهامٍ ... يُفادُ مِن قراءتِهِ العِلمُ بأسـبابِ استرداده؛ لِيتقيَها القارئ، فقَد كان مِن شَأنِ سيّدنا حُذيْفة بنِ اليَمانِ رَضِيَ الله عَنه أن يسألَ سيّدنا رسولَ الله ﷺ عَن الشَّر بيْنما النّاسُ يسألونَه عَن الخيرِ، وَما كان يَفعلُ إلَّا لأنّه يرَى اتقاء الشّرّ مقدَّمًا على فعلِ الخَيرِ، وَقد فَقِهَ.

لعلّ أوّلَ بواعثِ القراءةِ هو الاستجابةُ لِما فُطر عليه المرءُ مِن التّساؤلِ والتّوقِ إِلى رؤيةِ حقائقِ الأشـياءِ، فالإنسانُ حيوانٌ مُتسائلٌ، مُنعَمٌ عَلَيْهِ بِنعمةِ «الأرَق المَعرفيّ» وَهِي بعضٌ مِن نِعم التَّكريم الرَّبانيّة الكُليّة، فَليس ثَم غيرُ بني آدمَ - فيما أعلمُ - مُنعَم عليهِ بِتلك النّعمةِ: «نِعمة الأرَقِ المعرفيّ» ذلك الأرقُ الّذي يعتَري العقلَ فيكونُ آيةً بيّنةً علَى صِحّتِهِ، فِي مُقابل «الأرق النّفسـيّ» الذي يبتلَى



(١) تنظر مقالته في كتاب «لماذا نقرأ؟ لطائفة من المفكرين» تقديم رجب البنا. نشر دار المعارف – مصر – الطبعة الثانية، ص: ٣٩.



بِه مَن لَم يَكن سَـويًّا. عَافِيةُ العَقل الآدميّ فِي أرَقِهِ وتسـاؤلِه وَسَـعيِهِ إلَى المَعرفةِ: مَعرفةِ حقائقِ الأشياءِ، ومعرفةِ ما خُلقتْ له.

وَعافِية النّفسِ الإنسانيّة الطُّمأنينة بِذكرِ ربّها سبحانَه وَبِحَمْدِه.

و«الأرقُ المَعرفـيُّ» باعثٌ حَثِيثٌ علَى القراءةِ النافِـذةِ المثمرةِ الفاعلةِ، وهذه القراءةُ مُذكِيةٌ أُوارَ الأَرقِ المَعرفـيّ ـ فالمرءُ فِي هـذا كالحالّ المُرتحِل ما بيْن فِعلَيْن جَليلين هما معًا آيةٌ على أنّك أهلٌ للخِلافةِ الآدميّة.

فُطِرَ المرءُ السَّـويُّ على حبّ المعرفةِ، فالقراءةُ اسـتجابةٌ لداعِي هذه الفطرةِ السَّوية، وقد أوجزَ عبدُ القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ) هذه الحقيقةَ فِي فواتحِ القولِ فِي كتابِه: «دَلائل الإعجاز» عقبَ فراغِـه مِـن القولِ فِي مكانةِ فقهِ «الشّـعر» وفقه «النّحو» للعقلِ البلاغيّ العربـيّ قائلًا: «إنَّ التَّوق إلَى أنْ تقرَّ الأُمُورُ قَرارَها، وتُوضَعَ الأشـياءُ مَواضِعَها، والنِّزاعَ إلى بَيانِ ما يُشْـكِلُ، وَحَلِّ ما يَنْعَقِدُ، والكَشْـفِ عمَّا يَخْفَى، وَتلخيصِ الصِّفَةِ حَتَّى يَزدَادَ السَّـامِعُ ثِقَةً بالحُجَّةِ، وَاسْتظهارًا عَلَى الشُّبْهَةِ، وَاسْتِبانَةً لِلدّلِيلِ، وَتَبَيّنًا للسَّبيلِ، شَيْءٌ في سُوسِ العَقْلِ، وَفي طِباعِ النَّفسِ إذَا كَانَتْ نَفْسًا»[٢].

مقالـةُ عبدِ القاهر هذه بالغـةُ التّكثيف والتَّكريـسِ متكاثرةُ المعانِي تزيدُك عطـاءً كلَّما زدتَها تبصّرًا نَميرًا، وهِي تَهدِيك رَاشِـدةً إلى ما جعلَهُ اللهُ سـبحانَه وَبِحَمْده من سُـوسِ العَقْلِ الصّحيح الصّريحِ الذي لم يَمْهكْهُ رِجسُ الشّبهاتِ، ومِن طِباعِ النَّفس إذا كانت نَفْسًا سَويّة لم يُفسِدها رِكسُ الشّهواتِ.

هذان «التّوْقُ» و«النّزاع»: اللّذان هما عمودا «الأرق المعرفيّ» يفضِي النُّزولُ علَى أَمرِهِمَا إِلَى أنْ يَزدَادَ السَّامِعُ ثِقَةً بالحُجَّةِ، وَاسْتظهارًا عَلَى الشُّبْهَةِ، وَاسْتِبانَةً لِلدّلِيلِ، وَتَبَيّنًا للسَّبيلِ.

وَبِمثْلِ هَذَا تَنْضَبِطُ حَرَكَةُ الْمَرْءِ فِي سَعيِهِ إِلَى تَعميرِ الْحَياةِ تَـحْقِيقًا لِرِسَالَتِهِ الاسْتِخْلافِيّة.

الاسْتِجَابَةُ لِداعِي الفطرةِ الآدَميّة هُو الباعثُ الرَّئِيسُ لِلقراءَةِ فِي مَجالي: الكَونِ وَالْبيان اللِّسَانيِّ، وهَذا يَعْنِي: أنَّ مَن لا يستجيبُ لِـهذا الدَّاعِي، فإنّما هُو مَدخُولُ الْفِطرَةِ مَركُوسُها، تِلكَ الّتِي يَتَرَتّبُ عَلَيْها كَثِيرٌ مَن الْمثَالِبِ الثّوالِبِ.

والْبَاعِثُ الْكُلّيُّ الثّانِـي علَى «القِراءَةِ» يَتمثّلُ فِي فرِيضَة عِرفَان المرءِ بِنَفسِه، فهِيَ أحقّ الْخلائِق بالإحْسَـانِ إليْها، ذَلِك أنَّ اللهَ سـبحانَه وَبِحَمْده يأمُرُنا بالإحسـانِ إليها فيما يُفهم تلويحًا منْ قوله سبحانَه وَبِحَمْده:

﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـًٔاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن

(٢) دلائـل الإعجاز ، لأبـي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (ت: ٤٧١هـ) قرأه وعلق عليه: أبو فهر محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ .ص: ٣٤فقرة(٢٦).



﴿كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾ (النّسَاء:٣٦)

فإذَا ما كان فَريضَةَ الإحْسان إلَى الجَارِ ذِي القُرْبَى وَالجَارِ الجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنْبِ، فإن نفسَ المرءِ التي بيْن جَنبيهِ هِيَ الأحقُّ بذَلِكَ الإحْسَان .

وَلَيْسَ الإحْسَان أَنْ تَبْذُلَ لِغَيْرِك حقّهُ عَلَيْكَ. كلَّا، إنَّما ذَلِك «الْعَدلُ» والإحْسَانُ مَرتَبَةٌ أَعلَى مِنْ ذَلك، وَلَيْسَ الإحسَان أيضًا أَنْ تبذُلَ لَهُ مَا يَرجُو ويطمَع فِيهِ مِنْكَ، هَذا - فِيمَا أَفْهَمُ - إنّما هُو مِن «الْعَدلِ»؛ لأنّكَ بذلْتَ لَهُ حقّهُ فِي أَنْ يَطمَع فِيك جوادًا، فأَحْسَنَ بِك ظنًّا، فحقّهُ أَنْ ترُدّ علَى إحسَانِ ظَنّهِ بِك بأَحْسَنَ منْهُ أَوْ بِمِثْلِه.

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾

(النّسَاء: ٨٦)

الإحْسَانُ أَنْ تبْذلَ لَهُ فَوقَ ما يتوقّعُ مِنكَ، فَتَتجَاوَز توَقُّعَهُ- وَطمَعَهُ فِيك.

عَدْلُك مَعَ نفسِكَ أَنْ تُوفِّيَها حقّها في القِوامَةِ عَليْها رِعايَةً وَحمَايةً، ومن حقّها أَنْ تُحقّقَ لَها مَا فُطِرَت عَليْه كمَا بيّنه لَنا مقالُ عَبْدِ القاهرِ الآنِفُ، وَهذَا لَا يَكونُ إلا بـ «القِراءَة» الْمسْتبصِرة، فكيفَ الإحسَانُ إليْها؟ إنّه لأمرٌ جدّ ثقيلٍ فِعلُه، نبيلٍ عطاؤهُ، وفي ذلك فليتنافس كلُّ نَصوح نفسَه وقومَه وأمّته.

وَأَوّلُ مَا تَجِبُ قِراءتُه هِي نَفسُكُ الّتي بيْن جنبيك.

﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾

(الذّاريات: ٢٠، ٢١)

تبصر قَولَه تعالَى: ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ أخرَجَ لَك الأمر فِي صورةِ «تساؤل»: يَعتِبُ عَليْنا ربّنا أنّا لا نبصر ما فِي أنفسِنا مِن الآياتِ الدّالة عَليْهِ، فَفِي تبصّرِ ما فِي أَنْفُسِنَا تبصُّرًا نافِذًا ما يُفضِي إلى أَنْ نَعرفَ حَقِيقتَها وما جُبِلَت عليْه، وَما تُطِيقُه، وما تعجِزُ عنْه وأسباب عجزها عَنه، ومَا تَفْتقِرُ إليْهِ، وكلُّ ذَلِكَ ممَّا يُفضِي إلَى أَنْ نعرفَ ربّنا سبحانَه وتَعالَى، ومِنْ ثَمَّ قال الحُكماءُ: «مَنْ عرَفَ نَفْسَه فَقَدْ عَرَفَ رَبَّه»[٣].

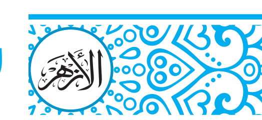
وحقًّا إنَّ الطَّرِيقَ إلى معرفةِ ربّك تعالى إنما هو معرفةُ نفسِك أوّلًا، ولا تحسبنّ مَعرفتَك ربّك أمرًا سهْلًا وقرِيبًا، فإنّ يحيى بن معاذٍ الرّازيّ (ت٢٥٨هـ) يَرَى هذه الْمعرِفةَ هي رأسَ الأمرِ وذروتَه وسَنامَهُ. يقُولُ:

«الدَّرَجَاتُ سَبْعٌ: التَّوْبَةُ، ثُمَّ الزُّهْدُ، ثُمَّ الرِّضَا، ثُمَّ الخَوْفُ، ثُمَّ الشَّوْقُ، ثُمَّ المَحَبَّةُ، ثُمَّ المَعْرِفَةُ».

(٣) هَذا الأثر لا يَصِحُّ البتة رَفعُه إلَى سيّدنا رَسُول الله صَلى الله عَلَيْه وَعَلَى آله وَصَحبه وسَلّم ، وإنما هو قول بعض أهلِ «الحكمةِ». يُنسَبُ إلَى أبي زكريا يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي (ت:٢٥٨هـ) .





تبصّــر كيــفَ أنّه عطفَ كُلًّا على الآخر بــ«ثُم» لِيهدِيَك إلى أنَّ ما بيْن الدّرجةِ وســابقتها ســعيًا ومجاهدةً كما بيْن السّماءِ والأرضِ.

وتبصّــر كيف أنّه جعل الدَّرجةَ الأولَى «التّوبة» ولا تكــونُ توبةٌ إلَّا من معرفةِ «النَّفسِ» وما كان منها ممّا لا يليقُ. معرفةُ الْمرْءِ نَفسَــه وما فُطرتْ عليْه من التّســاؤل فريضَةٌ لا تَتَحقّقُ إلّا بِالقِراءَةِ النَّافذَةِ المُثمِرةِ الّتِي عَمُودُ أَمْرِهَا التّبصّرُ، والّتِي أشَرْتُ فِــي المَقَالِ السَّابِقِ إِلَى شَيْءٍ مِنْ حَقِيقتِها، وفِعْلِها، فاستَحْضرْهما .

هــذا الباعثُ كمــا رأيتَ يُفضي بك إلى معرفــةِ الباعث الكليّ الثّالِثِ: معرفة العبد ربّه ســبحانَه وتَعالَــى وَما لَه من الحقوقِ عَلَى عِباده، فبغَيرِ هــذه المعرِفةِ لَنْ يتحقّقَ للعبدِ الوصُول إلَى مُبتَغاه مِن حَياتِهِ.

ولذا كان من رحمانيّةِ الله سبحانَه وَبِحَمْده العميمة ورَحيميّته الاصطفائية أن كان أول ما افتتح به كتابه «القرآن الكريم» هو تعريفنا بِه ســبحانَه وتَعالَى في الآيات الأُوَل من ســورة «أم الكتاب» لعلمه سبْحَانهُ أنا جميعًا عاجزون بأنفسنا عن أن نعرفَه، فما عرفناه بعقولنا بل بوحْيِه جَلّ جلالُه.

القراءة المستبصرة في الأكوان وفي البيانِ إنما هي الصّراط القويم إلى حسن معرفةِ العبد ربّه ســبحانَه وَبِحَمْده. وتلك المعرفةُ هي الّتي بها أداة وسببٌ يقتدرُ العبدُ العارف باللهِ تعالى علَى أن يقوم برسالتِه الاسْتخلافية الاستعمارية للحياةِ كونًا وإنسانًا.

***

هذهِ البواعثُ الكُليّة هِي أهمُّ البواعثِ الفَتيّة على القراءةِ النّافذة المســتثمرة، وَجَليّ لا يَخفَى أنَّ هــذه الْبَواعَــثَ الكُليّة يندرجُ فيها بواعــثُ جُزئيّة قَدْ فَصَّل القول فيها جمعٌ مِمَّن أَجَابوا عن ســؤال (لِماذا نقرأ؟) من قبلُ، وبمَلَكِك أنْ تسْتحصِدَ ما قالوا[٤].

حَرصتُ عَلى أَنْ تَكونَ البَواعِثُ الّتِي أذكرها هنا بَواعثَ إيمانيّة لأمرَيْن رئيسيْن:

الأوّل: أنّ الباعثَ الإيمانِيّ هو الباعِثُ الّذي يحملُ علَى تَحقيقِ أمرين لا يسْتَقيم فِعلٌ بغيرِهما:

الأوّل: صَفاء القصدِ وفتوةُ العَزم والعصمةُ مِن المَلَلِ وَالْكسَلِ والعجزِ واسْتعجالِ الثّمرةِ.

والآخر: إتقان الصُّنع، فذلك مَحبوب ربّنا سبحانَه وتَعالَى كَما جاءتْ بِه السّنّة النّبَوِيّة.

وهذا يجعلُ فِعلَ القراءة فعلًا عباديًّا يُتزلّفُ بِه إلى الله ســبحانَه وَبِحَمْده، وَما كانَ كذلِك كَانَتْ عَلاقَة الْمرْءِ به أمجَدَ وَأَحمَدَ.

وفي الحلقة القادمةِ إنْ شَاء الله تعالى حديثٌ عَن منهج القراءة المثمرة الفاعلة جوابًا عن سؤال (كَيْفَ نقرَأُ؟)؛ واللهُ المسْتعانُ عَلَى طَاعَتِه.

---

(٤) لك أوْ عَليْك أن تقرأ كتاب «كيف نقرأ ولماذا نقرأ» لهارولد بلوم ترجمة نسيم مجلّي، نشر المركز القومي للترجمة – القاهرة سنة:٢٠١٠م وكتاب «لماذا نقرأ؟ لطائفة من المفكرين»، تقديم رجب البنا. نشر دار المعارف – مصر.



